المنشآت التجارية (١٥٤) (القيساريات ـ الفنادق ـ الخانات ـ الوكايل) :

كانت توجد فى داخل الحى التجارى للمدينة العربية عدة منشآت تجارية تمثل أسواقا متخصصة أو تجمعات للتجارة والتجار ، سواء فى ذلك التجار الوطنيين أو الغرباء ، ومعنى هذا أنها تخدم التجارة الداخلية والخارجية معا .

أ ـ **القياسر (١٥٥)** : هى منشآت تجارية متخصصة فى شكل مبان كبيرة داخل الاسواق بالمدينة تضم داخلها عدة حوانيت للتجارة ، وتختلف هذه الحوانيت عن حوانيت السوق ـ المقامة على جانبى الطريق ـ فى أنها تشكل بناء مستقلا مستطيلا أو مربع الشكل ، له عدة أبواب ويضم نحو ثلاثين حانوتا في داخل كل منها مصطبة ومقعد ، ويلحق بكل قيسارية دورة مياه تضم حوضا وحماما وثلاثة مراحيض وبئر للماء ، ومخزن للسقاء .

أما أعلى القيسارية فربع لسكن الاجانب وغيرهم من التجار ، وأحيانا يكون فى أعلى هذه القيسارية مسجد يصعد اليه بسلم ، وكانت القيسارية تغلق ليلا ولها حارس (١٥٦) وقد عرفت المدن المصرية القياسر منذ الفتح العربى لمصر ، وقد خصص ابن دقماق لقياسر الفسطاط عدة صفحات من كتابه ، وكانت تنسب الى أصحابها أو لما يباع فيها ، وقد يشغل وسطها فى اقامة مساطب ومقاعد للخياطين . وفى حالة عدم استخدامها فى الاغراض التجارية قد تتحول الى ورش تقوم بها صناعات (١٥٧) هذا ، ولاتخلو مدينة مصرية من وجود قيسارية او اكثر بها ، ومازالت بعض شوارع الحى التجارى فى كل مدينة تحمل نفس الاسم .

ب ـ **الفنادق : (١٥٨)** هى منشآت تجارية وسكنية للتجار من أجانب ووطنيين في داخل الحي التجارى ، وينزل هؤلاء التجار أعاليها فى حين يخصص اسفلها للبيع والشراء ، وتنسب

---

(١٥٤) يمكن معرفة المزيد من التفصيلات عن مثل هذه المنشآت التجارية من مراجعة كتب الخطط التى تتبع اشكالها وتطورها التاريخى ، كما أن حجج الوقف تعتبر مصدرا هاما فى تحديدها ووصفها نظرا لأن هذه المؤسسات كانت ملكا للاشخاص ، وكثيرا ماكانوا يوقفونها على المنشآت الدينية والتعليمية .

(١٥٥) قيسارية : الكلمة أصلها لفظ يونانى (قيساريون) بمعنى السوق الامبراطورية مما يدل على انها كانت من انشاء الدولة ، ثم اطلقت بعد ذلك على الشارع التجارى فى المدن .. انظر فؤاد حسانين : الدخيل في اللغة العربية ص ٩٢ ، آمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى زمن الايوبيين والمماليك ص ١١٩ . رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآثار . جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

(١٥٦) آمال العمرى : مرجع سابق ص ١١٩/١١٧ .

(١٥٧) ابن دقماق : الانتصار ج ص ٤٠/٢٧ .

(١٥٨) اللفظ يونانى الاصل Pandokeon ويقابلها فى الايطالية كلمة Fondaco وكان يعرف فى الدولة البيزنطية باسم Mitata ... انظر آدم متيز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ص ٣٤٧ ، آمال العمرى: مرجع سابق ص ١٣٩ ، في حين يرى ليوبولدو فى مقالة عن الابنية العربية الاسبانية ص ١٢٢ ان كلمة Fonda (فندق) فى الاسبانية مشتقة من اللغة العربية تماما ككلمة Alhondega وقد اسهب عثمان الكعاك فى (الحضارة العربية) ص ٦٤ / ٦٥ في وصف الفندق أو الخان ودوره العظيم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأوروبا وحدد مواضع الفنادق على أبواب المدن وفى الاسواق والفنادق الخاصة بالقنصليات الاجنبية مع تحديد مهام كل منها وخصائصها وتفاصيل نواحيها ومن يسكنها أو يتعامل فى داخلها .

هذه المنشآت اما الى أصحابها أو الى ما يباع بهامن سلع (حيث كان كل فندق متخصصا فى بيع سلعة معينة مثل فندق الكارم) أو الى سكانهمن التجار . (١٥٩)

ويتألف الفندق من صحن أوسط حولهصار بها أربعة أروقة تشتمل على الغرف التى ينزلها التجار فى الدور الاعلى (١٦٠) وقد عرفتالفنادق فى مصر منذ القرون الاولى للهجرة ، اذ يذكر المقدسي فنادق مصر ويشير الى أن عامةأبوابها من شجر الجميز . (١٦١)

جـ ـ **الخانات : (١٦٢)** كان للخاناتوظيفتهافى التخزين والبيع وكمأوى للتجار الغرباء ، فشأنها في ذلك شأن الفنادق ، وتسمى أيضاباسم الاشياء التى تباع فيها او باسم صاحبها . أما عن نظام بناء هذه الخانات (وفقا لما هوقائم فى المغرب الاقصى حاليا) فانها تتألف من صحن مستطيل تحف به أربعة اروقة تشتملعلىحجرات ، وأهمية الاروقة انها تؤوى التجار والحيوانات والبضائع حتى لايبقوا فى العراء ،والطابق الارضى يخصص للمتاجر والاصطبلات، والعلوى يشنمل على حجرات للضيوف ، وكذلكمخازن تجارية . واذا كانت للمخزن أهمية كبيرة فانه يشتمل على طابق آخر له نفس وظيفةالطابق السابق . (١٦٣)

والى جانب الخانات فى الاسواق كانتهناكخانات على الطرق التجارية لخدمة التجارالمارين والمقيمين فى هذه المنازل على الطريق . وهذهالخانات عبارة عن بناء هندسى مكون من عدة حجرات تحيط بفناء مكشوف ، يضم غالباطابقينبالارض منهما اصطبلات للدواب من الداخل ،أما من الخارج فحوانيت صغيرة مثل حوانيتالاسواق ، أى عبارة عن حنية فى الجدار حوالى ستة أقدام مربعة تضم أرففا للبضائع ومصطبةللبائع والمشترى . اما الدور العلوى فمقسم لمساكن ، وكانت هذه الانواع من المبانى تضممسجدا ، اما في الفناء الاوسط أو فى الطابق العلوى فوق المدخل ، كما تضم أيضا سبيلا .وبحكم وقوع هذه الخانات (وأحيانا تسمى رباطات أيضا) على الطرق كان لها أبراجللمراقبةوالدفاع ، ومن ثم لا تحتوى على عدد كبير من المخازن وحجرات النوم والدور الارضي غالبامكونمن حجرتين فقط على جانبى المدخل ، علاوة على قاعات كبيرة لاتزيد عن اثنتين فى الجانب الموجودبه المدخل الوحيد للخان ، ثم ممر ، وتطل جميع هذه الوحدات على حوش اوسط مكشوف .وتخصص الحجرتان بالدور الارضى للعاملينبالخان وقد زود كل خان ببئر ومسجد للصلاة واصطبللدواب . (١٦٤)

---

(١٥٩) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٤٠ / ٤١ .

(١٦٠) ليوبولدو : الابنية الاسبانية الاسلامية ص١٢٠

(١٦١) المقدسي : ص ٢٠٤

(١٦٢) الخان كلمة فارسية وقد عرفها ياقوتبالمنازلالتى ينزلها التجار ، ومعناها منزل أو سوق ، وقدانتقلت من المشرق الاسلامى الى المغرب ، وظلت محتفظة بمميزاتهافى الشرق . وهناك تشابه كبير بين هذه الخانات وما نجده فى الميادين اليونانية فيما يسمى Agora وانتقل الىالرومان فيما يسمى Horrea ... انظر ليوبولدو مرجع سابق ص ١١٩ .

(١٦٣) ليوبولدو : مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٦٤) آمال العمرى : مرجع سابق ص ١٤٦/١٤٧ ،ص ٢٠١ ، نعيم زكى عطية طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى . رسالة دكتوراه (غيرمنشورة) آداب القاهرة ١٩٦٨ . ص ٢٥٦ .

د ـ **الوكائل :** تطلق على العمائر التى أعدت سكنا للتجار الشرقيين وحفظ بضائعهم والتسمية محلية فى مصر ، وهى أشبه ما تكون بالبورصة اذ يتولى الوكيل عن التجار فى ممارسة كل صور البيع والشراء .

وهذه المنشآت كانت ملكا للدولة ويتولى الاشراف عليها موظف حكومة وهى بذلك تجمع بين وظيفتى الفندق والخان الا أنها أكبر منهما من حيث المساحة واكثر دقة فى تخطيطها . وكذلك كان للافراد وكائل خاصة بهم وأصحابها من التجار الحائزين على ثقة الحكام . وقد عرفت الوكائل فى مصر منذ القرن الخامس الهجرى وانتشرت فى القاهرة والاسكندرية ودمياط . وقد ظهرت المشربيات بكثرة فى واجهات الوكالات الخارجية المطلة على الشارع والمطلة على الفناء الاوسط (١٦٥) واذا كان الخان قد اشتمل على طابقين فان الوكالة كانت من ثلاثة طوابق اولها للضيوف وثانيها به المطبخ الذى يخدم الدورين وثالثها السكن الخاص .

خضوع الاسواق للاشراف الحكومى : يتولى المحتسب الاشراف على الاسواق يساعده فى ذلك عيونه وغلمانه وأعوانه ومن كان يختارهم من العرفاء من صالح أهل كل صنعة . (١٦٦) ويشمل اشرافه عدة نواح أهمها :

ـ حفظ أموال التجار والغرباء الواردين من الامصار والرعايا فيما تدعوهم اليه حاجة الاضطرار باقامة الضمان للسماسرة والدلالين والباعة والكيالية والنقلة والحمالين والمكارية والجمالين . وان كان فى مكان فيه سفن ومرآب فللنوتية والملاحين . (١٦٧)

ـ مراقبة المكاييل والموازين وتحقيق كمياتها وسعتها ، وكذلك مراقبة النقود ، أى القيام بمهمة مفتش الاسواق ومندوب مصلحة المكاييل والموازين والتمغة .

ـ محاربة التدليس والغش فى السلع ومراعاة عدم الاحتكار والزام التجار بالبيع ، ومثل هذه المهام تمثل اختصاص مفتشى التموين فى العصر الحاضر .

ـ التأكد من ضرورة مراعاة الشروط الصحية بالنسبة للمأكولات أى العمل كمفتش صحة .

ـ القيام باختبار اصحاب الحرف والصناعات فى اعمالهم قبل الموافقة على الترخيص لهم بمزاولة المهن كل حسب حرفته ، من ذلك مثلا الكحالون (أطباء العيون) والاطباء فهؤلاء يمنحهم المحتسب بما ذكر فى كتاب « حنين بن اسحاق » واما الحجام فيمنحه بما يثبت مهارة وخفة يده فى الجراحة ، فى حين يلزم المحتسب المجبرين والجراحين بأن يكونوا على علم بالتشريح واعضاء الانسان . (١٦٨)

---

(١٦٥) آمال العمرى : المرجع السابق ص ١٦٦/١٦٨ ص ٢٠٩ .

(١٦٦) بما أنه ليس من المستطاع أن يحيط المحتسب بكل أفعال السوق فقد جاز له أن يجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم يكون مشرفا على أحوالهم ، ويطالعه باخبارهم ، وما يجلب الى سوقهم من السلع وما تستقر عليه من الاسعار وغير ذلك مما يلزم معرفته ... أنظر الشيزرى : ص ١٢ .

(١٦٧) محمد بن طلحة القرشي النصيبى : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٧٧ .

(١٦٨) الشيزرى : ص ٩٥ / ٩٩ ، ص ١٠٠ / ١٠١ .

ـ هذا ولا يقتصر اشراف المحتسب على السوق الرئيسى المعينة بل كان له الاشراف على الحوانيت المتفردة فى الحارات والدروب خارج السوق، اذ يفاجيء هؤلاء على حين غفلة منهم في كل اسبوع لأن اكثرهم يدلس فى تجارته وصناعته . (١٦٩)

ثانيا : الافران « المخابز »

نعمت المدن العربية بتنظيم احتياجات سكانها من الخبز وذلك بفضل ما كان متبعا من ضرورة الزام الدقاقين ـ الذين يتولون طحن الغلال ـ برفع « الوظائف » (الكميات المتفق عليها من الدقيق) الى حوانيت الخبازين ، ثم يجعل المحتسب بعد ذلك على كل مخبز وظيفة يخبزها فى كل يوم ، لئلا تختل المدينة عند قلة الخبز ، ويلزم اصحاب المخابز بذلك ان امتنعوا منه . كما كان عليه ان يفرقهم (يوزعهم) اي الافران ـ على الدروب واطراف البلد ، لما فيهم من المرافق (المنافع) وعظم حاجة الناس اليهم . (١٧٠)

وكان المحتسب يسجل فى دفتر اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فان الحاجة تدعوه الى معرفتهم (١٧١) ، ويتفقد الافران فى آخر النهار . (١٧٢) وفوق كل ذلك يراعي جميع الشروط الصحية الواجبة فى شخص القائمين على انجاز الخبز في جميع مراحله سواء قبل أو اثناء ذلك وبعده .

ونظرا للضرورة الملحة فى وجود الافران فى ارجاء المدينة فان تصميمها كان يخضع لاشراف المحتسب، وذلك لمراعاة الظروف الصحية للسكان من ذلك ما كان ينبغي على الخبازين من رفع سقائف حوانيتهم ، وفتح ابوابها وجعل منافس واسعة (فتحات) فى السقوف يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك الناس ، مع مداومة اصلاح هذه المداخن . (١٧٣) .

وكذلك كانت المطاحن هي الاخرى تخضع لتفتيش المحتسب سواء فى سلامة عمليات الطحن ومراعاة الشروط الصحية وضرورة الرفق بالدواب المستعملة فى ادارة احجار الطواحين .

وقد زاد من اهتمام المحتسب بهذا المرفق بالمدن أن معظم سكان المدن الكبرى كانوا يعتمدون على المخابز لسد احتياجاتهم اليومية لانهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة مأكلهم من أسواقهم . (١٧٤)

ثالثا ـ الحمامات

للحمام أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية فى المجتمع الاسلامي فان عادة الاستحمام متأصلة فى سلوك المسلمين . ولقد كانت الحمامات من مرافق المدن الهامة التي تعطى المدينة صفتها

---

(١٦٩) الشيزرى : ص ٦٠ ، ابن الاخوة ص ١٣٠ .
(١٧٠) الشيزرى : ص ٢١ ، ٢٣ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٧٢ .
(١٧١) الشيزرى : ص ٢٢ .
(١٧٢) ابن الاخوة : ص ٩٢ .
(١٧٣) الشيزرى : ص ٢٢ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٩١ .
(١٧٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٩٣ .

الحضرية ، واكثر من هذا فقد جعلها ابن خلدون من المظاهر المميزة للمدن المستبحرة ، حيث انها مما تدعو اليه عادة الترف والغنى والتنعم .

وفضلا عن وظيفة الحمام الصحيةوالترفيهية ، فقد كان للحمام غرضه الديني ـ كما هو الحال فى جميع مرافق الحياة الاسلامية(١٧٥) ـ ومن ثم فقد كان فتح الحمام يبدأ من السحر لحاجة الناس اليه للتطهر قبل الصلاة . (١٧٦)

ونظرا للاهمية الصحية والترفيهيةوالدينية للحمامات فقد خضعت لاشراف المحتسب الذي كان يتفقد حماما فى كل يوم مرارا، ويأمر اصحابها باصلاح الحماماتونضح مائها ، وبفسل الحمام وكنسة وتنظيفه بالماءالطاهر ،وان يفعلوا ذلك مرارا في اليوم . (١٧٧)

لقد كانت اعداد الحمامات كبيرة في المدنالآهلة بالسكان ، فكان فى كل حي حمام على الاقل ان لم يكن اكثر من ذلك فى بعض الاحيان ، اماالمنازل الكبيرة او القصور فقد كان لها حمامات خاصة على طراز الحمامات العامة ، ولو أنهااصغر منها بوجه عام . كما عرفت كثير من الابنية العامة ـ فى المدن ـ الحمامات مثل الخوانقوالرباطات والخانات المقامة على الطرق .

ولطبيعة المجتمع الاسلامى كان للنساءحمامات خاصة ، ليس فقط فى المدن الكبيرة وانمافىالمدن المتوسطة مثل مدينة الخانكة .(١٧٨)

وقد كان المحتسب يتفقد ابواب حماماتالنساء . (١٧٩)

ومن الناحية الاقتصادية فقد كانتالحمامات من أفضل العقارات التي تقتنى داخل المدن ، وقد وضع الدمشقي (١٨٠) لافضلهامواصفات منها ، ان تتوسط المدينة وان تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة ليؤمن عليهامن الاختناق ، وان بيوتها متوسطة مكتنزة ليعمل فيها الوقود ، وان يكون مخلعها وقمينها واسعينليمكن ادخال الكثير من الوقود لها . وان كان ماؤها بدولاب وما قل عمق بئرها فهي أفضل ،وان كان ماؤها جاريا فما قرب من جهة الماء ومعظمه .

ويدخل في مجال المفاضلة بين الحماماتتفضيل ما كان قديم البناء (١٨١) كثير الاضواء

---

(١٧٥) ليوبولد ونوريس : الابنية الاسبانيةالاسلاميةص ١٠٨ / ١٠٩ .

(١٧٦) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخوة : ص ١٥٦.

(١٧٧) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخوة : ص١٥٤ / ١٥٥ .

(١٧٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥١ « حمامبرسم النساء واستجد بعد سنة ٧٩٠ هـ »

(١٧٩) الشيزرى : ص ١٠٩ .

(١٨٠) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارةص ٣٥ .

(١٨١) قال مهذب الدين بن هبل فى كتاب « المختار »خير الحمام ما كان قديم البناء فان الحمام القريب العهد بالبناء تكون حيطانه ندية فتكون ارابيح صهاريجه مضرةقال بعض الشراح لهذا الفصل « الحمام الجديد البناء يتحلل من حيطانه رطوبات ممتزجة بجوهر الكلس والحصىوالقار ويتبخر بحرارة الحمام فيضر استنشاقها بالروح والنفس ... فاذا اعتقت الحمام قل تحليل الابخرة الرديئةمنها ومن حيطانها فيؤمن الضرر الحاصل منها ... انظر الغزولى : مطالع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ٥ .القاهرة ١٢٩٩ هـ .

مرتفع السقوف واسع البيوت عذب الماء طيب الرائحة ، وان تكون حرارته بقدر مزاج الداخل اليه ، وان يكون الفناء متسعا لان ابخرة الحمام رديئة وكثيرة وان يكون الحمام على البناء فان ذلك معين على تقليل حر ابخرتها . (١٨٢)

وكل هذه الاشتراطات ان دلت على شيء فانما تدل على مدى حرص العرب على ان تكون حماماتهم على أحسن وضع ومستوفية لكافة الشروط المطلوبة فى مثل هذا المرفق الهام من مرافق المدن .

أما عن تخطيط الحمامات فقد شيدت على نظام يضمن للمستحم عدم تعرضه للايذاء بالانتقال السريع من البرد الى الحر أو العكس (١٨٣) فقد كانت تشتمل على عدة بيوت ، الاول منها مبرد مرطب ، والبيت الثاني مسخن مرخ والبيت الثالث مسخن مجفف (١٨٤) ، وفوق ذلك فالانتقال بينها يكون تدريجيا (١٨٥) وقد حفظ لنا البغدادي وصفا تفصيلا لحمامات مصر فذكر انه لم يشاهد فى البلاد اتقن منها وضعا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا ، ثم وصف الاحواض وسعتها ومقدار ما يصب فيها من ماء بارد وحار . واما البرك فمن الرخام ، وعليها أعمدة وقبة ، وسقوفها مزخرفة والارض من الرخام (١٨٦) . وكانت جدران بعض الحمامات تزين بالصور والنقوش الجميلة اعتقادا انها تزيد قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسية . (١٨٧)

أما وصف البغدادي لبيت النار فان عليه من القدور المصنوعة من الرصاص التي تتصل قرب اعاليها بمجار من انابيب فيدخل الماء من مجرى البئر الى فسقية عظيمة ثم منها الى القدور ، ثم الى مجاري الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بأيسر كلفة . ويشير الى ان ارض الاتون (بيت النار) تفرش بنحو خمسين اردبا من الملح ـ وكذلك ارض الافران ـ لان الملح من خصائصه حفظ الحرارة ، ويضيف البغدادي انه توجد اماكن للخاصة دون العامة . (١٨٨)

هذا وترجع الحمامات الاسلامية من حيث عادة الانشاء وطريقة البناء الى الرومان ، وان كانت الحمامات الرومانية أكثر عظمة واكبر حجما واعظم ترفا فان العرب لم يراعوا الا الفائدة العملية فى جميع أبنيتهم (١٨٩) ، وان كانت الحمامات فى عصر المماليك بمصر قد اخذت الكثير من المظاهر الجمالية .

---

(١٨٢) الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ج ٢ ص / ٤ / ٥ . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(١٨٣) زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٨ .

(١٨٤) الشيزرى : ص ٨٦ ، الغزولى ، مطالع البدور ج ٢ ص ٤ .

(١٨٥) الغزولى : مطالع البدور ، ج ٢ ص ٤ .

(١٨٦) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٣٩ / ٤١ .

(١٨٧) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٨ .

(١٨٨) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٣٩/٤١ .

(١٨٩) ليوبولد ونوريس : الابنية الاسبانية الاسلامية ص ١٠٨ .

واخيرا يجب ان نذكر ان الحمامات فىمدينة العصور الوسطى بأوروبا كانت محرمة ، ولم تعرف اسبانيا الحمامات الا بعد نزول العرب بها ، ولم تقتصر الحمامات على المدن الاسلامية بالاندلس بل تعدتها الى غيرها،واصبح الاستحمامعادة عند الاوروبيين حتى الراهبات في الاديرة ثم مع زوال سلطان الاسلام تلاشت عادةالاستحمام فى اسبانيا منذ القرن السادس عشر الميلادي وساعد على ذلك عداء الكنيسة للعاداتالاسلامية . (١٩٠)

ربعا ـ الابنية الدينية :

تميزت المدينة الاسلامية بالعديد من المباني والمنشآت الدينية التي لا يقتصر دورها على احياء الشعائر الدينيةبل تعدى ذلكالى تقديم خدماتتعليمية وثقافية (١٩١) واجتماعية وصحية ، من هذه المنشآت المساجد والخوانق والرباطاتوالزوايا .

المساجد : لا يتشابه دور المسجد فى المدينةالعربية مع دور الكنيسة او الكاندرائية فى أوروبا العصور الوسطى ، فانه فضلا عن قيام المسجدبعدة مهام دينية وتعليمية وثقافية ، فان مساجد الصلوات الخمس تتعدد فى المدينة الواحدة حتىتعد بالمئات ولقد كانت اقامة بعض المساجد « المسجد الجامع » من مسئوليات الحاكم أوالوالي ،والى جانبها مساجد تعد بالمئات فيتسابق فى اقامتها الامراء والقواد والتجار وغيرهم من افراد المجتمع كل حسب قدرته .

أما المسجد الجامع ـ الذى اتخذه بعضالفقهاء علامة مميزة للمدن الاسلامية أو الامصار ـ فقد كان مركزا للحياة الدينية والسياسيةوالاجتماعية الى جانب مهمته الاساسية أداء الصلاة ، فقد كانت تعقد فيه الاجتماعات العامةالكبيرة ، وتنظر فيه القضايا ، وتعطى في رحابه الدروس ، ومن فوق منبره كانت تقرأ النشراتالرسمية والخطابات التي تتضمن اخبارا هامة كالانتصارات الحربية . (١٩٢)

ويرجع قيام المسجد الجامع بكل هذه المهامالى أنه كان مجلسا للوالي ، وكان للمسجد حرس (١٩٣) حول الموضع الذي يجلس فيه الواليالذي يتولى الولاية على الاقليم ـ وأول مظاهرها

---

(١٩٠) ليوبولد وثوريس : المرجع السابق ص ١١٦ /١١٨ ، وانظر ممفورد : المدينة على مر العصور ج ٢ ص ٥٢٢ حيث يذكر انه كانت توجد فى احياء المدن الاوربيةفى العصور الوسطى دار للاستحمام .

(١٩١) كمثال نجد فى مسجد أحمد بن طولون فىعهدالسلطان لاجين انه رتب بالمسجد ثلاثين نفسا يتفقهون على مذهب الامام مالك ، وشيخا يتفقهون عليه ومثلهم علىمذهب الامام الشافعى وابى حنيفة والامام أحمد ، ومثلهم محدثين (علم الحديث النبوى) وعشرة من الاطباء يقرأونالطب ، وشيخا يقرأون عليه ، وطائفة من القراء (للقرآن الكريم) ومن يلقن الصبيان الايتام ، الى غير ذلك منوجوه البر ، وأجرى لجميعهم ارزاقا جمة ، ووقف لجميع ذلك اموالا عظيمة . انظر التجيبى السبتى : مستفاد الرحلةوالاغتراب ص ٧ .

(١٩٢) ليوبولد ونوريس : مرجع سابق ، ص ١٠٠.

(١٩٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٦٢ .

امامة المسلمين فى الصلاة ، وقد ظل الخلفـــاءوالولاة يؤدون خطبة الجمعة بأنفسهم حتى العصر العباسي ، ثم انابوا عنهم غيرهم .

ولم يقتصر استخدام المسجد كمركز اعلامىلاوامر الدولة ومقرراتها (١٩٤) بل اخذت هذه الاوامر والمقررات ـ احيانا ـ صـــورة الـــدوامىوالاستمرار ، فقد كانت المراسيم تنقش علـــى الرخـــام وتثبت بجوار المحـــاريب او تثبت علىابواب المساجد ، وخصوصـــا تلـــك المراســـيم الخاصة بالاعفاء من المكوس او الضرائب بالنسبةللمدينة او الجهة التي يقع فيها المسجد ، وهكذا يصبحمن وظائف المسجد نشر أوامر الدولةومقرراتها على نحو ما هو ثابت فى مسجد الامير نصر الله بمدينة فوه (مرسوم ابطال مكس فوم ٨٠٣ هـ)ولم يقتصر هذا الامر على المدن بل عم فى القرى فى مساجدها الجامعة . (١٩٥)

ونظرا لاهمية المسجد الجامع فى المدينـــةالعربية فقد نظر اليه البعض علـــى انـــه اساس التنظيم العمراني للمدينة ومن حوله بقية الانشطة(١٩٦) وانه بهذا يحتل موضعا هو بمثابة القلب او المركز الرئيسي للمدينة ، وتنتشر حوله الاحياءوالخطط المختلفة بما حوته من دور ومســاكـــن واسواق ورحاب وغيرها . (١٩٧) وقد قارنالبعض بين المسجد الجامع والكاتدرائية في العالم المسيحي وما بين منارة المسجد وبرج الكنيسة..وان ساحة المسجد تحل محل ميدان الكنيســـة (١٩٨) . ومثل هذه المقارنة كان مـــن الممكـــن قبولها لو ان المدينة العربية كانت تعرف مسجدا جامعا واحدا ، وانها تخطط على هذا الاساس انيتخذ موضع المسجد اولا ثم تقام المدينة مـــن حوله ، وان صدق هذا فانما على الامصـــار اوالمدن الحادثة ، اما اذا نظر الى تخطيط المدينة العربية بوجه عام فانها تختلف فى تركيبها عـــنالمدينة الاوروبية لاختلاف دور كل من المسجـــد والكاتدرائية .

---

(١٩٤) يذكر ابن الاثير أن منشورات الحكومة كانتتكتب فى الواح تعلق فى الاسواق . ويذكر السخاوى ان هذه المنشورات منها ماكان منقوشا على رخام يطاف به فىالشوارعويلصق واحدة منها قرب أبواب المدينة الرئيسية أو قـــد تلصق على حائط بقرب المسجد الجامع ، واحيانا كانتتعلق على الحوانيت وأبواب الدور ... انظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٤٤ / ٤٥ .

(١٩٥) حسن عبد الوهاب : طرز العمارة الاسلاميةفي ريف مصر ص ٦ .

(١٩٦) السيد محمود عبد العزيز سالم : التخطيطومظاهر العمران فى العصور الوسطى ص ٥٤ . المجلة ، العدد ٩ سبتمبر ١٩٥٧ .

(١٩٧) فريد شافعى : العـمارة والبيئة العـربيةالاسلامية ص ٣٦ . مجلة الدار العدد ٢ ، ربع ســنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز . السعودية يونية ١٩٧٥ .

(١٩٨) سابا جورج شبر : العلم وتنظيم المـدنالعربية ص ٣٠ . الكويت ١٩٦٣ .

42 B

المعاهد والمؤسسات الدينية الاسلامية :

تعتبر الخوانق والرباطات (١٩٩) والزواياصورا متعددة من المعاهد والمؤسسات الدينية الاسلامية العامة والتي تؤدي خدمات ثقافيةواجتماعية وصحية ، ففي بعضها ينقطع اصحاب التصوف واهل التقشف للعلم والعبادة ، وفيهايتم تدريس مذاهب الفقهاء على اختلافها ، كما ان بعضها يقوم بايواء الغرباء والوافدين منالفقراء واهل المسكنة وهى بذلك بديل عن أماكن السكنى العامة . واذا كان لهذه الدور شروطفى القبول فان بعضها بدون شروط ، ومنها ما كان خاصا بالنساء ، كان فيها متسع للاطفاليتعلمون الدين والعلوم العامة ، وفوق ذلك خدمات صحية .

ولقد كانت دور العبادة والعلم هذه منالاعمال الخيرية التي تنافس فى تشييدها السلاطين والحكام والامراء والاعيان والتجار وكلأهل الرياسة والثروة (٢٠٠) ثم أوقف كل هؤلاء على هذه المؤسسات من العقارات والاراضيالزراعية وغيرها ما مكنها من اداء وظيفتها فى المجتمع ، وما وسع من اختصاصاتها بمالا يقارنبحال من الاحوال بدور العبادة التي قامت فى المجتمع الاوروبي :

خامسا ـ المقابر والاضرحة :

كانت المقابر القديمة الفرعونية (البرابى)احدى سمات تعريف المدينة في مصر العصر الوسيط . أما المقابر الاسلامية فقد استحدثتمع انتشار الاسلام فى مصر واتخذت بوجه عام مواضع فى الجهات القبلية (الجنوبية) او الغربيةمن مراكز العمران دون الجهات الشمالية لمراعاة اتجاه الرياح السائبة .

اما خصائص مواضع هذه المقابر فكانت اماعلى حافة الصحراء أو فى الجزر الرملية أن وجدت بين المعمور ، أو على التلال الكفرية الباقية كأثرللمراكز العمرانية القديمة ، أو كبقايا للمقابر القديمة السابقة للفتح الاسلامي .

---

(١٩٩) عن الرباط ودوره في الحياة الدينية فىالاسلامووصلته بالرباط الحربى ومدى العلاقة بينهما والتشابه القائم بين هذه المنشآت ومثيلاتها فى أوروبا العصور الوسطىانظر :

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٦ / ٢٧ ،الطبعة الاولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

كمال الدين سامح : العمارة في صدر الاسلام ص ١٤٢،مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١ .

عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحرالمتوسط .معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٥ .

ناجى معروف : اصالة الحضارة العربية ص ٤٦٠ /٤٦٢ .

حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائقوالآثار ص ٤٦٧ القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٠٠) ابن خلدون : الرحلة ص ٣٠٤ .

٩٦ 43

وقد دعت الضرورة أحيانا الى اتخاذالمقابر فى الجزر المنتشرة فى بحيرات شمال الدلتا وذلك ضنا بالاراضي الزراعية وحرصا في جميعالحالات على الدفن فى اماكن جافة خالية من النز والرشح والرطوبة .

أما الاضرحة ـ وهي المقابر ذات القباب ـ فقد كثرت فى منطقة المقابر وفى داخل المساجد بالمدن حتى صارت من سمات المدن الاسلامية ،ويلاحظ على هذه الاضرحة ان الكثرة الغالبة من المدفونين بداخلها من غير المصريين ، منهم الحجاج والرحالة العابرين لارض مصر والذين انتهت حياتهم فى تلك المدن ، ومنهم طلاب علم نالوا فىمصر الوظائف بعد ان استقروا فيها وماتوا .

وقد تنافس في تجصيص المقابر والاضرحةوزخرفتها وتشييدها كل من المملوك والسلاطين والامراء والتجار وافراد الشعب مما جعل من تلك المقابر سجلا حافلا بالفن الاسلامي العربي خصوصا اذا ما علمنا بأن الكثيرين من السلاطين والامراء والاغنياء قد اهتموا باقامة المقابر والاضرحة الخاصة بهم فى حياتهم،ويبدو واضحاان هذه من سمات مصر منذ العصر الفرعوني .

وهناك من المقابر ما ارتبط تشييده بالمساجد والزوايا والرباطات والخوانق ، اذ ان كثيرا ما كان المشيد لهذه العمائر الدينية يقيم لنفسه ولغيره من سكان هذه المؤسسات مقابر على نحو ما هو بمدينة الخانقاة السرياقوسية .

هذا وتعد منطقة المقابر من المعالم الواضحةفى المدن العربية المصرية فى العصر الوسيط ، وكثيرا ما تشغل الاجزاء الداخلية من كتلةالسكن الرئيسية ، وقد تتعدد مناطق المقابر بتعدد النوبات السكنية القديمة للمدينة الحالية،وفى كثير من الاحيان تشغل منطقة المقابر اطراف الكتلة السكنية القديمة .

سادسا : احتياجات المدينة من المياه العذبة

ان توفر الماء العذب شرط أساسي لايتجمع عمراني ، وتصبح الحاجة اليه اشد مع زيادة حجم هذا التجمع الممثل فى المدن ، ولهذانجد ان القرب من النهر وفروعه وخلجانه وترعه شرط أساسي في تحديد مواضع المدن ، كما انلفصلية النهر أثرها وبالمثل فصلية خلجان النهر ، مما يدفع باستمرار الى العناية بالمجاري المائية وضمان استمرار جريان الماء فيها ، واذا لم تتوفر المجاري الطبيعية فان شق الخلجان أوالترع يصبح البديل الضروري للمراكز العمرانية المستحدثة فى مثل هذه النواحي .

هذا ويتم تزويد مساكن المدينة بالماء العذبعلى يد السقائين وأصحاب الروايا والقرب ممن يحملون على ظهورهم او على الدواب . وقد كانمن اختصاص المحتسب الاشراف على السقائين فيأمرهم بالدخول فى النهر حتى يبعدوا عن الشط ومواضع الاوساخ ولا يستقون من موضع النهر

بقرب سقاية الدواب أو مستخدم (خرارة) أومجرى حمام ، بل يصعدون عنه أو يبعدون من تحته .ومن اتخذ منهم رَّواية جديدة امرهالمحتسب بنقل الماء الى معاجن الطين أياما ، ولا يبيعون الماء للشرب ، فانه يكون متغير الطعموالرائحة من أثر الدباغة والزفت ، فان زال التغير اذن لهم المحتسب ببيعه للناس للشربوالاستعمال .

وفى سبيل المحافظة على المارة من البلل فقدكان المحتسب يأمر السقائين بربط أفواه القرب ، وان يشدوا فى أعناق دوابهم الاجراس وصفاقاتالحديد والنحاس ، لتعلو جلبة الدابة اذا عبرت فى سوق أو محلة . (٢٠١)

وهناك من المدن المشرفة على النهر مباشرةما كانت المنازل فيها تأخذ حاجتها من النهر مباشرة بدركات تؤدي الى النهر مثلما شاهد ابنبطوطة في دمياط ، كما عرفت بعض المدن رفع الماء بالدواليب لتوصيل الماء الى المرافق العامةكالحمامات والمساجد . وكذلك عرفت بعض المدن استخدام ماء الآبار فى الاغراض المنزليةتسهيلا وتيسيرا ، فى حين اقتصر حمل الماء العذب على اغراض الشرب .

وأما فى المدن البعيدة عن مصادر الماء العذبمثل المدن القائمة فى الجزر او الهامشية فقد اعتمد تعلى تخزين الماء العذب فى الصهاريجاو استفادت من ماء المطر .

سابعا : الصرف والتخلص من نفايات المدن :

كما عرفت المدن المصرية شبكات المياهالعذبة في المساكن والمرافق العامة حيث ينقل الماء الى الادوار العليا ، كذلك عرفت المدن طرقصرف مياه آبار الحشوش (المراحيض) المتجمعة من مرافق المنازل فى حفر الدور وذلك على يدالكاسح (السراباتي) الذي كان يتولى تنظيف الاسرية والقنى بعد نقل هذه المياه المستعملة .(٢٠٢) ولقد كان نص اختصاص المحتسب الزام من اخرج كنيفا ان يطرحه خارج البلد .(٢٠٣)

وفى المدن الكبرى كالقاهرة كانت الدولةتعطى حق نقل مياه الحشوش لملتزم يدفعللدولة اموالا مقابل احتكار هذا العمل فى كل المدينة ،ثم يتولى هو بالاتفاق مع السكان على الاجر الذى يتقاضاهفىمقابل نقل مياه حشوشهم ولايستطيعمالك أن يفعل ذلك الا عن طريق هذا الملتزم .

---

(٢٠١) الشيزرى : ص ١١٧ ، ابن الاخوة : ص ٢٤٠ .

(٢٠٢) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص١٤٦ .

(٢٠٣) المجيلدى : التيسير فى أحكام التسعير ، ص٧٢ .

والى جانب هذه الوسيلة فقد عرفت بعض المنازل استخدام آبار عميقة فى داخلها يصرف اليها الماء المستعمل حتى يتسرب مع الماء الجوفي على نحو ما كشفت عمليات الحفر فى اثار الفسطاط . (٢٠٤)

• • •

وبعد ، فقد القينا الضوء هنا على جانب هام من الفكر العربى ، كيف كان يعامل مع مطيات الحضارة من حوله ـ المدينة ـ فهذه نبذة عن تركيب المدينة العربية تعكس مدى عناية العرب بجغرافية المدن ، ولقد استعرضنا نصيب هذه الظاهرة الجغرافية ، فى المؤلفات الجغرافية وكتب تواريخ المدن والحضارة ، وخاصة ما سجله ابن خلدون فى مقدمته . ولقد الحقنا ذلك بتركيب المدينة من الداخل من حيث تخطيطها : منازلها واسوارها وتوابعها ، ثم فصلنا القول عن اهم مرافقها التجارية والصناعية والصحية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية والدينية ، ومدى كفاية هذه المرافق فى سد احتياجات السكان اليومية لتقويم المدينة بوظائفها المتعددة .

★ ★ ★

---

(٢٠٤) الشيزرى : ص ٣٣ ، ابن الاخوة ، ص ١١١ ، ص ١٢٩ .